التحولات الجديدة في التربية الدينية للطلاب

في حوار مع الدكتور عبدالعظيم كريمي*

❐ ما هي، في رأيكم، أصول و ضروريات التغيير في التربية والتعليم ؟

الدكتور كريمي: إذا لم تحل الرؤية والتفكير «الكيفي» بدلاً من التفكير «الكمي» في النظام التعليمي؛ أي الاهتمام بمسار التعليم بدلاً من الأرقام والنتائج ، فإن حركة إصلاح النظام التعليمي سوف تبقى تراوح في مكانها .

إضافة إلى ذلك ، فإنه لا يمكن أن نتوقع تحولاً و تغييراً، و نشاطاً فاعلاً من الطلاب في ظل حاكمية «النظرة الآلية» . فلا يمكن أن نتوقع المشاركة الذاتية و الفعالة من قبل أولياء الطلاب و المربين في نظام إداري ديكتاتوري . فمن ضروريات التغيير في النظام التعليمي ، هو ترسيخ حاكمية «الرؤية التغييرية»، و «القيمية»، و «محورية الطالب»، و إعطاء الأولوية للنشاطات في إطار العقلانية، و المدنية و المعنوية .

❐ ما هي الأبعاد الدينية (المعتقدات ، الأخلاق ، الأحكام ، التجربة الدينية) التي يجب التأكيد عليها في التربية و التعليم أكثر من غيرها؟

الدكتور كريمي: في البداية لابد أن نعرف ما هي الأبعاد التي تشكل روح التربية الدينية ؟

في الإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأن الإيمان القلبي – و هو أمرٌ تجربي و باطني – هو أساس الجوانب الاعتقادية

* باحث وأستاذ جامعي-إيران.

والأخلاقية و الأحكام. فعلى سبيل المثال ، إذا لم تكن الأخلاق ناشئة من الإيمان و الإرادة و الشوق ، فسوف نحصل على انضباط خارجي وسطحي من التربية الدينية ، وليست أخلاقاً مستمرة و نابعة من الداخل . كذلك، فإن العمل بالأحكام الدينية ، إذا لم يكن ناشئاً عن إيمان و تجربة معنوية و حضور قلبي ، فليس له أي قيمة تربوية؛ و لهذا السبب، فإن شرط قبول الطاعات و العبادات في الإسلام– حتى في أمثال الصلاة و الصوم و ... هو النية، و حضور القلب، و قصد التقرب لله – سبحانه و تعالى–.

إن البعد الأخلاقي إذا كان مرتبطاً بالمحركات الخارجية فقط (الترغيب و الترهيب و العقاب و ...) و لم ينبع من إيمان داخلي ، فليس له أي أصالة داخلية، و سوف يكون منطلقه الإيماني محل تساؤل أيضاً .

وعلى هذا، فإن «التجربة الدينية» التي هي بمثابة تحول داخلي فاعل و علاقة حب مع الله –سبحانه و تعالى، يمكن أن تشكل الأرضية المناسبة لظهور سائر الأبعاد الدينية في المجالات الاجتماعية و الأخلاقية و العبادية ، علماً بأن هذه التجربة لابد من أن تكون مقترنة بالبصيرة و المعرفة الشهودية ، وليست مجرد أحاسيس و انفعالات عاطفية .

و لهذا السبب، فإن برامج التربية الدينية في النظام التعليمي لابد من وضعها على أساس «المعرفة الشهودية»، و تبتني على قاعدة «القلب» و التحولات «العاطفية» .

❐ إلى أي حد يمكن أن نتوقع من التربية و التعليم أن تقوم بخطوات مؤثرةً في مجال التربية الدينية؟ وما هي المجالات التي يمكن أن تعطي نتائج أكثر و نشاطات أفضل؟

الدكتور كريمي: للإجابة على هذا السؤال بصورة دقيقة يجب أن نحدد – أولاً – ميزان توقعاتنا من الدين، فهل هو يتناول جميع جوانب الحياة أو يقتصر على القضايا الفردية والعبادية؟ فإذا نظرنا إلى الدين باعتباره نصاً شاملاً ، جامعاً، خالداً وعالمياً لهداية الإنسان في جميع أبعاد حياته ، فحينئذٍ لايمكن الفصل بين «التربية الدينية»، و«التربية الأخلاقية»، و«التربية السياسية»، وحتى «الاقتصادية»، و«المعاشية» و... . فمع التسليم بجامعية التربية الدينية لأي نوع من أنواع التربية و التعليم التي تؤدي إلى نضوج «الفطرة الإنسانية» والاستعدادات المعنوية . فعلى سبيل المثال، إن التربية «الفكرية» و«العقلية» عند الطفل والتي تؤدي إلى «التفكير الصحيح»، و«النظر الصحيح»، و«السمع الصحيح»، و«الحكم الصحيح»، تعتبر نوعاً من أنواع التربية الدينية ، وتربية «الذوق الفني» و«الشعور بالجمال» بواسطة تقوية النشاطات الفنية يمكن أن تقع في إطار التربية الدينية أيضاً ، بل حتى التربية البدنية يمكنها أن تأخذ صبغة دينية إذا كانت النية خالصة على طريقة الدعاء

الوارد عن أمير المؤمنين (ع) : «قوِّ على خدمتك جوارحي» . فالمهم هو وجهة التربية في إنضاج جميع قابليات الإنسان من أجل تطور وتكامله. فإذا ما استطعنا تفعيل كوامن الفطرة الإنسانية فسوف نحصل على تربية دينية بصورة طبيعية.

❐ هل تبقى هناك ضرورة – في تلك الصورة – بأن يؤدي نظام التربية و التعليم الرسمي دوراً محورياً في التربية؟ هناك سؤال آخر يطرح نفسه ، وهو: هل أن التربية – مبدأياً – حق الدولة أم حق الوالدين؟ و هل التربية عملية «خاصة» أم «حكومية» ؟

الدكتور كريمي: إن الإجابة على أي من الأسئلة المذكورة يتضمن تعيين المعايير و تبيين المباني النظرية و الفلسفية لها؛ إذ إن هناك سؤالاً آخر يطرح نفسه و هو: هل أن الأطفال يجب تربيتهم وفقاً لما يقتضيه و يريده المجتمع الحاضر، أم يجب تربيتهم طبقاً لقابلياتهم و حاجاتهم الفعلية، أم وفقاً لمقتضيات المستقبل؟ من جهة أخرى يجب تعيين حدود «التربية الرسمية» من التربية «غير الرسمية» . وهذا السؤال هو من أهم محاور الاختلاف في التربية و التعليم في الوقت الحاضر ، و قد كان مطروحاً من قبل أيضاً .

فهناك من يعتقد بأن واجب النظام التعليمي هو تهيئة الظروف المساعدة و اللازمة لنمو قابليات الطلاب ، وأن النظام التعليمي لايجوز له أن يستخدم هذه القابليات لمصالحه الاقتصادية و احتياجاته الخاصة . و في الحقيقة، فإنه لا يجوز أن تصبح شخصية الطفل و استقلاليته قرباناً للمصالح و المقتضيات الاجتماعية، بل لابد أن يكون هناك تزاوج بين الحاجات الفردية و المقتضيات الاجتماعية من جانب، وإيجاد علاقة متعادلة بين «التربية الرسمية» و«التربية غير الرسمية» من جانب آخر، و بهذه الطريقة يمكن أن تحل المشاكل .

❐ ما هي الأولويات التي يجب أن يطمح لها القائمون بأمور التربية و التعليم في تربية الطلاب و تعليمهم ؟

الدكتور كريمي: إن تعيين الأولويات يرتبط ارتباطاً مباشراً بقابليات الطلاب من جهة، والحاجات و المقتضيات الاجتماعية من جهة أخرى ، ولكن أساس جميع هذه الأولويات هو تربية قوة التفكر و التعقل عند الطلاب إلى جانب سائر أبعاده الوجودية ، فإذا ما تطورت هذه القوى عند الطالب فسوف يتاح له الفهم و الإدراك الصحيح للعالم و لنفسه ، وسوف تحل قابلية «إنتاج الفكر» بدلاً من استهلاكه، وقدرة التقييم الواعي المنصف مكان التقليد والانفعال والتلقي .

فإذا ما نضجت قدرة التعقل و التفكر عند الطلاب بشكل غني و فعال ، فسوف يكون البحث عن الحقيقة، والشعور بالجمال و عبادة الله هي النتائج الطبيعية لهذا الأمر . و في

الحقيقة ، إن تربية الطلاب على أن يكونوا عقلاء بالمعنى الواقعي سوف يمهد الأرضية لسائر الأبعاد التربوية الأخرى ، فعن طريق قوة «التعقل و التفكر» يمكن الحصول على «المحبة» و«التدين» أيضاً.

❐ هل يمكن للمناهج المعاصرة أن تحقق أهداف التربية الإسلامية ؟ وما هي المناهج الحديثة التي تقترحها ؟

الدكتور كريمي: للإجابة عن هذا السؤال ، لابد أن نحدد المقصود من «أهداف التربية الإسلامية». فهل هذه الأهداف مدونة ؟ و إذا كانت مدونة ، فما هي معايير تدوينها؟

فما يمكن أن يقال بالنسبة للمناهج الحاكمة على التربية و التعليم ، بأن أغلبها مناهج «أحادية الاتجاه» ، «آلية» و«غير فعّالة» . فهي تتعامل مع موضوع التربية – الطالب – على أنه «آلة صماء» أو «كالشمع اللين» الذي يمكن أن يتشكل بعدة صور؛ حيث يقوم المربي على ضوء ما يملكه من أفكار و آراء بتلقين الطالب مجموعة من العقائد و المطالب ، و عن طريق الترغيب و الترهيب ، يمكن أن نعطيه الشكل «المطلوب» .

إن لفظ الشكل «المطلوب» يستحق التأمل كثيراً؛ أي سوف يتربى أولادنا كما نريد ونشاء، لا كما يستطيع ويريد.

❐ هل يمكن أن تؤسس التعاليم التربوية على ضوء التعاليم الدينية فقط ؟ و ماذا يجب أن نفعل في مثل هذه الحالة ؟

الدكتور كريمي: أولاً، إن الأساس النظري لطرح هذا السؤال يبتني على رؤية «خارجية» للدين و التربية الدينية؛ لأن التربية الدينية ليست مسألة خارجة عن وجود الفرد لكي يمكن أن تنقل إليه عن طريق مجموعة من المحفوظات ، ثم ترسيخها في الذهن عن طريق الترهيب و الترغيب، بل إن قبول الدين مسألة «ذاتية» و «عفوية»؛ أي ليس من الصحيح أن نقوم بفرض شيئاً من الخارج لكي يصبح أمراً داخلياً متجذراً في باطنه ، بل لابد من القيام بما من شأنه أن يفعّل القابليات الفطرية للطفل ، فنحن في الحقيقة لا نستطيع إيجاد قابلية الإبداع أو الرياضيات أو الرسم أو ... أبداً ، بل نقوم باكتشافها و تنميتها . إن المهمة الدينية ليست تجذير الحس الديني و تأسيسه ، بل تفعيل استعداد التدين عند الإنسان . كما أن الفن ليست مهمته إيجاد الشعور بالجمال بل استخراج و تربية هذا الشعور عند الطلاب .

❐ إلى أي مدى تنطبق البرامج التربوية المتعارفة مع الواقع الموجود و أهداف التعليم والتربية الإسلامية ؟

الدكتور كريمي: لقد تعرضنا إلى جواب هذا السؤال سابقاً . أما بالنسبة لانطباق هذه البرامج على الواقع الموجود ، فيجب أن نقول: إن هذا الارتباط ضعيف جداً ، بل في بعض الأحيان قد يحصل تعارض بين هذه البرامج مع أهداف التربية الإسلامية ! فليست هناك قطيعة كبيرة بين ما يقصده المسؤولون من وضع البرامج التربوية، و ما ينفذه المعلمون و المدراء و ما يكتسبه الطلاب فقط ، بل إن هناك تعارضاً عميقاً بين البرامج التربوية من حيث الاتجاه أيضاً، و يمكن تشبيه هذه البرامج بذرات الغبار المعلقة التي لايجمعها جامع ، فهناك تنافر بين «النظام الداخلي» و«النظام الخارجي» ، بل وحتى بين أجزاء النظام ، إضافة إلى أنه لم يتم تحديد أهداف التربية و التعليم الإسلامية، ولم تزل محاور و مواد البرامج التربوية غير معلومة !

❐ هل يمكن ترك جميع أبعاد التربية إلى نظام التربية و التعليم الرسمي أي هل يمكن أن نتوقع منه القيام بجميع هذه الأبعاد ؟

الدكتور كريمي: إن الاجابة على هذا السؤال سلبية؛ لأن القيام بمثل هذا العمل الكبير و الرسالة الثقيلة لايستطيع أن يقوم بها مثل هذا النظام ، بل و لايجب أن يقوم بها . إن القسم الأعظم من العملية التربوية ترتبط بالظروف الطبيعية و تنبثق من المنطلقات الطبيعية غير الرسمية ، بل ويمكن أن نقول: إن أكثر الآثار التربوية دواماً هي التي تنشأ في الأجواء غير الرسمية للحياة ، وإن الذي يجعل العملية التربوية سطحية وغير جذرية هو تكوّنها في ظل أجواء «رسمية»؛ لأن التربية بالمعنى الواقعي للكلمة هي تغيّر ذاتي نابع من الداخل .

إن التعاليم الأخلاقية و الدينية يمكن أن تؤتي ثمارها و تحدث تأثيراتها في نفس وروح المتعلم عندما تنبثق بصورة «طبيعية» ، «غير رسمية» و «واقعية» ، وعندما تخرج عن الجانب الرسمي و المتكلف . إن العملية التربوية لابد أن تقترن بالحرية، والاختيار والرغبة القلبية للمتلقي ، فهل يمكن أن تمتلك «التربية الرسمية» مثل هذه الخصوصيات ؟

❐ في رأيك ما هي أهم الصعوبات و المشاكل التي تواجه التغيرات و الإصلاحات على أساس القيم الإسلامية ؟

الدكتور كريمي: يمكن تلخيص هذه المشاكل بالمحاور التالية :

١- الموانع الثقافية و الفكرية؛ أي النظرة الآلية للإنسان و هيمنة الخطاب السلطوي في تشكيل سلوك و أفكار الطلاب من جهة ، و التوقع الآحادي الجانب من التربية و الذي عادة يميل إلى كمية المعلومات، والدرجة و المعدل، والنتاجات الذهنية و الحفظية الصرفة من جهة أخرى .

٢- الموانع البنائية القانونية و الإدارية؛ أي عدم المرونة و فقدان التعامل الخلاق مع التغيرات التي تحدث في المجتمع .

٣- مشكلة الكادر الإنساني على صعيد الإدارات العليا للنظام التعليمي ، و على صعيد التعليم أيضاً، كما أشرنا إلى ذلك في الأجوبة السابقة .

❐ ما هي العراقيل المحتملة التي تواجه التغيرات الجذرية في النظام التعليمي و التي عادة ترتبط بالعناصر الداخلية للنظام ؟

الدكتور كريمي: يمكن أن نصنّف هذه العوامل - إجمالاً - بالمحاور التالية :

١- فقدان الاستراتيجية العلمية الواقعية و العملية في النظام العلمي .

٢- عدم وجود إدارة نظامية موحدة في وضع السياسات و البرامج و التنفيذ و التقييم.

٣- ابتلاء النظام التعليمي بالمشاكل اليومية ، الإدارية و البيروقراطية .

٤- وجود بون شاسع بين المعطيات و النتائج ، أو بين التوقعات و القابليات .

٥- غربة النظام التعليمي عن الحاجات الحقيقية و الواقعية للطلاب في مجالات تعلم : كيف نعرف ؟ كيف نعيش ؟ كيف نتعايش ؟ و كيف نعمل ؟

❐ ما هي اقتراحاتكم لإيجاد تحول جديد في التربية و خصوصاً في مجال التربية الدينية ؟

إجمالا ً، لإيجاد تحول في نظام التربية و التعليم لابد أن نلتفت إلى المحاور التالية :

١- في مجال التعليم- التعلم لابد أن يحل منهج «كيف» نتعلم؟ بدلاً من «ماذا» نتعلم .

٢-يجب أن تحل «الكفاءة» بدلاً من «العلاقات» في النظام الإداري .

٣- إحلال محورية «طرح الأسئلة» و«الاهتمام بمسار التعليم» في التقييم الدراسي بدلاً من محورية «الإجابة على الأسئلة» و«النتائج و الأرقام».

٤- لابد أن يحل «المحتوى الداخلي» و«الإيمان الداخلي» بدلاً من «الشكلية» و«الانضباط الخارجي».

٥- في التربية الاجتماعية لابد أن تحل «المهارات الأساسية للحياة» مكان «المعلومات» و«المحفوظات الذهنية» .

٦-لابد أن تحل «العقلانية» و«المدنية» بدلاً من «الأذواق الفردية» و«التحكم» في وضع البرامج و اتخاذ السياسات.